وزراء عباسيون

يعقوب بن داود وزير المهدي

(بني أمية هبّوا طال نومكم　　إنّ الخليفة يعقوب بن داود)

(بشار بن برد)

الدكتور فاروق عمر
مدرس في قسم التاريخ

مقـــدمة

يرى المؤرخون أن منصب الوزارة أستحدث في العصر العباسي الاول[1] ولكن الباحث في تاريخ الوزارة في الدولة الاسلامية يواجه صعوبات جمة[2] منها ما يتعلق بأصل اصطلاح « وزير » ومنها ما يعود الى بداية نشأة منصب الوزير وتطوره ، ومنها ما يلاحظ من عدم تحديد صلاحيات الوزير مما أدى الى نوع من التصادم بين سلطته وسلطة الخليفة •

فمن الاسئلة التي تبحث عن جواب هو ، متى اصبحت الوزارة احدى المؤسسات الرسمية في الدولة الاسلامية وما هي نظمها ؟ اليس من الدقة ان يتحدث مؤرخ (الوزارة الاسلامية) عن شخصيات وزارية تتمتع بصلاحيات معينة تتفاوت درجاتها بحسب قابلية الوزير وحذقه السياسي • وبمعنى آخر هل هناك منصب اداري واضح المعالم يطلق عليه (الوزارة) ام أن الخليفة اختار شخصاً من مواليه او صحابته ليحمل عنه اعباء الحكم ومسؤولياته او ليعينه في

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، جـ١ ، ص١٧١ . محمد برانق ، الوزراء العباسيون ، جـ١ ، ص٤ . حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام السياسي ، جـ٢ ، ص١٩٦ . عبدالعزيز الدوري ، النظم الاسلامية ، ص٢١٢ . حسن احمد محمود . العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص١٤٠ .
Goiten, The Origin of the Vizierate, I.C., 1942, P.258.
Sourdel, Le Vizirat Abbáside, 1959, chapter II, PP. 41ff.

(٢)
Sourdel, problimes de L'histaire du Vizirat 'abbáside (132/749 á 324/936)
in chapter. VII, Congress of Orientalists. Moscow, 1957.

المشورة والتدبير • ان الجواب على هـذا السـؤال يجب ان يعين اصل نشـوء منصب الوزارة في الاسلام • والمعروف ان كلمة (وزير) ليست غريبة على لغتنا العربية • اما منصب الوزير وصلاحيـاتـه فقد وجد في دول اخرى منها الدولـة الساسانية قبل ان تقرر اسسه في الدولة العباسية • وثمة خطأ وقع فيه من بحـث الوزراء الاسلامية من الكتّاب من امثال ابن طباطبا والماوردى وابى يعلى وغيرهم فهم يبرزون لنا الوزارة كمنصب واضح المعالم والصلاحيات منذ نشأتها ولكـن الواقع يظهر بان الوزارة لم تقرر قواعدها وتتوضح اسسها الانتيجة التجارب التي مرت بها حيث تبلورت في نهاية القرن الثالث الهجري وبدايـة القـرن الرابـع الهجري •

ولقد اعترضت نشأة الوزارة عوامل وتأثيرات متداخلة ومعقدة منها ما يتصل بالعادات العربية ومنها ما يتعلق بتأثيرات الاسلام • وربما كان لادعاء العبـاسيين بانهم اصحاب الحق الشرعي في حكم الجماعة الاسلامية وانهم يمثلون السنة أثرٌ في اختيارهم هذا الاصطلاح القرآني ليدل على مشاور الخليفة الاول ومساعده • يضاف الى ذلك بان التقاليد الدينية (الثيوقراطية) التي تبنتها الخلافة العباسيـة لعبت دورها في ابتداع هذا المنصب •

وهناك سؤال آخر يتعلق بالاسلوب المنهجي الذي يجب ان يتبعه البـاحث • هل ان الباحث يجب ان يفترض منذ البداية وجود منصب يسـمى « الوزارة » يشبـه « الولاية » وان هذا المنصب اذا شغر من وزير قديم فيجب ان يملأ بوزير جديد ؟ ام ان فكرة الوزارة مرت بتجربة طويلة قبل ان تستقر اسسها • وانه كان هناك نوع من عدم الميل الى اتخاذ الوزير بصورة دائمية وانما كان للخليفة العباسي كاتب مرة ووزير مرة اخرى ؟

وهناك اعتبارات سياسية وادارية وثقافية على الباحث ان يدركها فينظـر الى هذا المنصب من خلال هذه الاعتبارات المختلفة • فاذا اعتبـر البـاحـث مثـلاً ان الوزير ما هو الا تطور للكاتب في العصر الاموي فعليه ان يتساءل لماذا وكيـف استطاع (الكاتب) من بين اعوان الخليفة وصحابته ومواليه ان يبرز ويبسـط نفوذه ويوسع سلطته •

ثم ما هي الشروط التي يجب ان تتوفر في الوزير وهل كانت له صلاحيات

مرسومة ؟ اي هل ان الوزارة كانت تعني تنفيذ واجبات محـددة ؟ وفي اي عصر تميزت هذه المسؤوليات ؟ وما هي علاقة الـوزير بالخليفة ؟ فالظاهر ان الوزارة العباسية مرت بفترات من القوة والضعف اطلق عليها الفقهاء والكُتّاب النظريون مصطلحات منها وزارة التفويض ووزارة التنفيذ ، ولكن المؤرخ الباحث يتسـاءل هل كان هذا الضعف او تلك القوة نتيجة ضعف في نظام الوزارة ام في شخصية الوزير نفسه ؟ وهنا تدخل اعتبارات جديدة ذات علاقة بالتنافس بين التكتـلات المختلفة في البلاط والادارة العباسية • فهناك سلطة الخليفـة وهناك النزاع بين موالي الخليفة وصحابته وهناك نفوذ قادة الجيش (اصحاب السيف) ونزاعهـم مع كتلة الكتاب والمدنيين (اصحاب القلم) ، وهنـاك التيـار الخفي الفعـال الذي كانت تمثله كتلة الكتاب في الدولة العباسية الذين ظلّوا متعلقين بتراثهم الفكري الايراني واثروا في المفاهيم الادارية الاسلامية •

هذه الامثلة وامثالها تعترض الباحث في تاريخ الوزارة الاسلامية وعليه ان يجد لها جواباً يستطيع به أن يحدد المعالم الرئيسية لهذا المنصب وصلاحياتـه • ولقد بحث في نظام الوزارة الاسلامي الكثير من الفقهاء والكُتّاب منهم الماوردي (الاحكام السلطانية) وابو يعلى الفراء الحنبلي (الاحكام السلطانية) وابو سـالم محمد بن ابي طلحـة الوزير (العقـد الفريـد للملك السعيد) وابن طباطبـا (الفخري) • وهناك كتب تختص بتاريخ الوزارة منهـا (الـوزراء والكتـاب) للجهشياري (وتحفة الامراء في تاريخ الوزراء) لهلال الصابي (ورسائل الصابي) لابي اسحق الصابي (واحسن المسـالك في اخبـار البرامك) ليـوسـف الميلوي (والارشاد الى من نال الوزارة) لابن منجب الصيرفي (والنكت العصرية في اخبار الوزارة المصرية) لعمـارة اليمن (ومآثر الانافـة في معـالم الخلافة) للقلقشندي • الا ان هذه الكتب عالجت موضوع الوزارة في فترة متأخرة حـين كانت الوزارة قد حددت خصائصها على انها لم تكـن كذلـك منذ اول نشوئهـا في صدر دولة بني العباس • وتحوي كتب الادب المختلفة ككتب ومقالات الجاحظ وكتب آداب الكُتّاب على معلومات طريفة عن الوزارة • وفي كتب التاريخ العامة معلومات قيمة عن تاريخ الوزارة والوزراء العباسيين •

يقول المسعودي « استخارت بنو العباس تسمية الكاتب وزيراً •• وكانت

ملوك بني امية تنكر ان تخاطب كاتباً بالوزارة»[٣] ويؤيد ابن طباطبا ـ وذلك فيقول « وسمي الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً او مشيراً »[٤] • على ان اول شخصية سياسية في العهد العباسي تتفق الروايات التاريخية على انها تلقبت رسمياً[٥] بلقب (الوزير) هي شخصية يعقوب بن داود السلمي وزير المهدي ولهذا السبب كان اختيارنا لـه في هذه المقالة •

اصله وسيرته الاولى :

يعقوب بن داود بن عمرو بن عثمان بن طهمان السُلَمي بالولاء[٦] • ليس لدينا معلومات كثيرة عن اصله وآبائه سوى ما يذكره البلاذري[٧] من ان طهمان كان مولى لأبي صالح عبدالله بن خازم السُلَمي والي خراسان الاموي وانه قتل معه اثناء صدام مسلح ضد بعض القبائل الخراسانية في ضواحي مرو سنة ٧٢هـ او

---

(٣) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، قاهرة ١٩٣٨ ، ص٢٩٤ .

(٤) ابن طباطبا ، الفخري ، قاهرة ١٩٢٧ ، ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٥) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٢٨ ، ص١٥٧ ، ص١٨١ .
الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، طبعة ليدن ، III ، ص٥٠٩ .

(٦) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، جـ١ ، ص٢٥٤ . اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ٤٨٢ فما بعد . جهشياري ، الوزراء ، ص ١٥٥ ـ ١٦٣ . الطبري ـ تاريخ ، III ، ص٤٦١ فما بعد (انظر الفهرست) . المسعودي مروج جـ٦ ص٢٣٢ ، تنبيه ، ص٣٤٣ . للاصفهاني ، مقاتل الطالبيين ص ٤١١ ـ ٤١٢ ، الاغاني جـ٩ ، ص٤٥ (انظر الفهرست) . التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، جـ١ ، ص١٤١ . الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد ، جـ١٤ ، ص٢٦٢ ـ ٢٦٥ . ابن الاثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص٢٤ فما بعد (انظر الفهرست) . ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ٤ ص١٩ ـ ٢٥ (النسخة الانكليزية جـ٤ ، ص٤٥٢ فما بعد) . خيرالدين الزركلي . الاعلام ، (مادة يعقوب بن داود) .

(٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، طبعة ليدن ، ص٤١٦ .

(٨) الطبري ، تاريخ ، III ، ص٥٠٦ . ويؤيد ذلك الجهشياري ، الوزراء ، ص١٨٠ ، ابن خلكان ، وفيات ، (الانكليزية) جـ٤ ، ص٣٥٢ . ابن الاثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص٤٦ . ابن خلدون ، العبر ، جـ٣ ، ص٢١١ (١) (يعقوب بن داود) .

E. Köcher - **Ya'qub b. Dá'úd** ..., Mitteilungen des Instituts Für Orientforschung, Band, III, 1955, Berlin

سنة ٧٣هـ/سنة ٦٩٣م • ان اتصال طهمان وتقربه الى السلطة الاموية في خراسان هيأ لابنائه الفرصة للسير على نفس الطريق حيث تذكر الروايات التاريخية ان داود واخوته اشتغلوا كتاباً في الديوان في خراسان حتى ولاية نصر بن سيار • يقول الطبري « كان داود بن طهمان واخوته كتاباً لنصر وكتب داود قبله لبعض ولاة خراسان »(٨) •

ولم يكن داود هذا موظفاً مغموراً بل كان ذكياً مدركاً للأمور وطموحاً • ولعله ـ وهو بحكم وظيفته اقرب ما يكون الى تقلبات السياسة الاموية ـ قد ادرك اسباب تدمر اهل خراسان وتدهور دولة الامويين فاستهوته الدعوة السرية لاهل البيت فاعتنق المذهب العلوي الزيدي واتصل سراً بيحيى بن زيد الحسيني وحذره من خطط نصر بن سيار للقبض عليه • ولكن نصر قبض على يحيى وقتله سنة١٢٥هـ/سنة٧٤٣م(٩) •

وفي سنة ١٢٩/سنة ٧٤٧م اعلن دعاة العباسيين في خراسان يساندهم المقاتلة العرب من اهل خراسان وبعض الموالي والفرس من عجم خراسان الثورة العباسية التي قضت على الامويين سنة ١٣٢هـ/سنة ٧٥٠م • وكانت شعارات الثورة الثأر لأهل البيت وخاصة زيد وابنه يحيى التي ظلت اخبار مقتلهما تحز في نفوس المسلمين • وقد أمن أبو مسلم الخراساني داود بن طهمان وقدر له موقفه من أهل البيت ، وترك له املاكه وضياعه ولم يصادر منه الا الاموال التي كان قد حصل عليها من نصر • ولذلك بقي داود في وضع موسر مكنه من تربية اولاده وتهذيبهم وتلقينهم العلم فنشأوا « أهل ادب وعلم بايام الناس وسيرهم واشعارهم »(١٠) • ولكن الدولة العباسية لم تستخدم داود في الادارة وذلك لسببين :

الاول ـ هو ميل داود واخوته الى الشيعة العلوية حيث كان داود ذا ميل الى الزيدية وعلى اتصال بهم • هذا وبالرغم من ان الدعوة العباسية رفعت شعارات الثأر لأهل البيت الا ان صفتها العباسية كانت محددة منذ البداية ولم يكن بالامكان الاعتماد في هذه الفترة المبكرة الا على شيعة عباسيين موثوق في اخلاصهم •

والثاني ـ ماضي داود بن طهمان واخوته الموصل بالسلطة الاموية في خراسان

---

(٩) الطبري ، تاريخ ، ، ص٥٠٦ •

(١٠) نفس المصدر السابق •

لم يكن يؤهلهم لكسب ثقة العباسيين الذين خشوا غدرهم كما غدروا سابقا بنصر ابن سيار .

وبسبب ميولهم تلك لم تشفع ثقافة اولاد داود واخوته وكفاءتهم لدى العباسيين فاصيبوا بخيبة أمل ودفعتهم خيبة املهم هذه الى البحث عن وسيلة اخرى لاشباع طموحهم السياسي وتطلعهم نحو السلطة . وكان طبيعياً ان ينظر اولاد داود الى المعارضة العلوية ، التي بدأت تستفحل بعد اعلان الدولة العباسية وانقسام الهاشميين الى علويين وعباسيين ، على انها طريقهم الى السلطة . وكان « علي بن داود كتب لابراهيم بن عبدالله بن حسن وصحبه يعقوب بن داود »(١١) . ويقول الطبري « ونظروا فاذا ليست لهم عند بني العباس منزلة فلم يطمعوا في خدمتهم .. فلما رأوا ذلك اظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل الحسين وطمعوا في ان يكون لهم دولة فيعيشوا فيها فكان يعقوب يجول البلاد منفرداً بنفسه ومع ابراهيم بن عبدالله أحياناً في طلب البيعة لمحمد بن عبدالله »(١٢) . وهكذا فقد انضم علي ويعقوب الى محمد النفس الزكية ، ثم انخرطوا في صفوف اخيه ابراهيم في البصرة الذي ثار سنة ١٤٥هـ/سنة ٧٦٢م . وكانت ثورة العلويين هذه خطرة على كيان الدولة العباسية الفتية ولكن حنكة الخليفة المنصور وصلابته مكّنته من القضاء عليها فما كان من يعقوب واخوته الا الاختفاء . وقد استطاع المنصور ان يقبض على يعقوب واخيه ويودعهما في السجن مع بعض العلويين امثال الحسن ابن ابراهيم الحسني . وكان في السجن ايضاً اسحق بن الفضل بن عبدالرحمن الهاشمي .

الخليفة المهدي ويعقوب بن داود

لقد بقي يعقوب بن داود في سجنه ما تبقى من عهد المنصور اي اكثر من عشر سنوات ولما تولى المهدي الخلافة سنة ١٥٨هـ/سنة ٧٧٤م أراد ان يظهر للناس انه المهدي حقاً فاعلن عن اجراءات سياسية تتصف بالمرونة والتسامح والعفو وبذل الاموال والعطاء . وكان من هذه الاجراءات اعلانه عفواً عاماً عن اغلب

(١١) الجهشياري ، المصدر السابق ، ص١٥٥ .
(١٢) الطبري ، المصدر السابق ، ص٥٠٧ .

السجناء السياسيين وكان يعقوب بن داود ممن اطلق سراحهم • يقول الطبري(١٣) « وفي سنة ١٥٩هـ امر المهدي باطلاق من كان في سجن المنصور الا من كان قبله تباعة من دم او قتل ومن كان معروفاً بالسعي في الارض بالفساد او من كان لأحد قبله مظلمة او حق فاطلقوا فكان ممن اطلق من المطبق يعقوب بن داود مولى بني سليم » •

وقد استطاع يعقوب بعد فترة قصيرة من استعادته حريته ان يكسب ود الخليفة • ولعل تقرب يعقوب من الخليفة بهذه السرعة كان من الغرابة بحيث ادهش الرواة الذين حاولو ان يطلقوا العنان لخيالهم وينسجوا الروايات حول ذلك • والواقع ان السجن لم ينقص من عزيمة يعقوب او يقضي على طموحه السياسي بل على العكس فان هذا الرجل ذو الشخصية الجذابة كان من الذكاء بحيث استغل ماضيه السياسي فجعله سلماً للوصول الى الحكم •

لم يشمل عفو المهدي الحسن بن ابراهيم الحسني الذي بقي في السجن فحاول الهرب•بقول الجهشياري(١٤) « وكان الحسن في المطبق فسعى به يعقوب الى المهدي وذكر انه عمل سرباً يهرب منه فبعث المهدي فوجد السرب فنقله الى نصير الوصيف » • ويؤكد الطبري ذلك في رواية دون اسناد فيذكر ان يعقوب علم محاولة الحسن الهرب « كان يعقوب بعد ان اطلق سراحه يطيف بابن علاثه وهو قاضي المهدي ويلزمه حتى أنس بـه ••• فأخبره ان عنده نصيحة للمهدي وسأله ايصاله الى ابي عبدالله [وزير المهدي] »(١٥) • وعن طريق ابي عبدالله وصل يعقوب الى مجلس المهدي وقابله واخبره بعزم الحسن على الهرب عن طريق ممر ارضي حفره لـه اعوانـه •

لم يتورع يعقوب بن داود عن خيانة صديق قديم لـه ليتقرب بذلك الى الخليفة ، كما وانه لم يعر اية أهمية الى ولائه العلوي السابق من اجل الوصول الى

---

(١٣) الطبري ، المصدر السابق ، ص٤٦١ •

(١٤) الجهشياري ، المصدر نفسه ، ص١٥٥ •

(١٥) الطبري ، المصدر السابق ، ص٤٦٢ • ابو عبيدالله معاوية بن عبدالله بن يسّار مولى الاشعريين ويلقب ايضا بالطبراني كان وزيراً للمهدي ومشاوراً لـه قبل استيزاره يعقوب بن داود • أنظر E.I. (٢) (ابو عبيدالله) • الجهشاري ، المصدر السابق ، ص١٤٠ فما بعد •الطبري• المصدر السابق ، III ، ص٤٦١ فما بعد •

هدفه السياسي الجديد • ولم تفت يعقوب الفرصة ليشكر الخليفة على العفو الذي شمله به والظاهر انه جنّد كافة خبراته السابقة ولباقته ليترك اثراً حميداً في نفسية الخليفة •

ولقد ساعدت يعقوب الظروف السياسية التي كانت تمر بها الخلافة وخاصة في مواجهتها للخطر العلوي • فلقد استطاع الحسن بن ابراهيم الهرب الى الحجاز واختفى عن الانظار ، ويتفق المؤرخون بان هرب الحسن وثق صلة الخليفة بيعقوب لانه كان مضطراً الى الاستعانة بخبرة يعقوب وصلته بالعلويين في سبيل مراقبة العلويين ومعرفة تحركاتهم • يقول الجهشياري[١٦] « فاحتيل له [للحسن] في الهرب فهرب من يده لان جماعة من الزيدية احتالت في هربه ••• فتقدم المهدي الى يعقوب بطلبه فضمن له ذلك واستأذنه في رفع النصائح اليه فاذن له فداخله بذلك السبب » • وتشير رواية اخرى « اخبر المهدي يعقوب بما حدث من امر الحسن فاخبره يعقوب انه لا علم له بمكانه وانه ان اعطاه اماناً يثق به ضمن له ان يأتيه به على ان يتم له على امانة ويصله ويحسن اليه فاعطاه المهدي ذلك في مجلسه وضمنه »[١٧] •

لقد حاول الخليفة المهدي ان يتبع في بداية حكمه سياسة التوفيق واللين وخطة المسالمة والمهادنة مع العلويين من اجل كسبهم الى تأييد الدولة العباسية وكان اصطناعه يعقوب موافقاً لهذه السياسة الجديدة • عن علي بن محمد النوفلي[١٨] ، ان المهدي قال « لو وجدت رجلاً من الزيدية له معرفة بال حسن وبعيسى بن زيد وله فقه فاجتلبه الي على طريق الفقه فيدخل بين وبين آل حسن وعيسى بن زيد فدل على يعقوب فأتى به فادخل عليه » ثم تقول رواية ثانية « تقدم المهدي الى يعقوب بطلب الحسن فضمن له ذلك »[١٩] • ولقد كانت هذه الخطوة الاولى حيث اعقبتها خطوات خاصة وان يعقوب السياسي المداهن كان قد وطد صلته بقاضي بغداد ابن علاثه وبكاتب الخليفة ووزيره ابي عبدالله معاوية الاشعري فلقد انتهز يعقوب فرصة لقائه بالخليفة فاقترح عليه بان يسمح له « برفع النصائح

---

(١٦) الجهشياري ، المصدر نفسه ، ص١٥٥ .
(١٧) الطبري ، المصدر السابق ، III ، ص٤٦٣ .
(١٨) المصدر السابق ، ص٥٠٨ . انظر كذلك البلاذري ، انساب الاشراف (مخطوطه) في استانبول . ص٥٨١ .
(١٩) الجهشياري ، المصدر السابق ، ص١٥٥ .

اليــه » فاذن له • وقد مهد يعقوب لذلك بطريقة دبلوماسية واورد الاسباب الموجبة لها • « قال يعقوب يا امير المؤمنين قد بسطت عدلك لرعيتك وانصفتهم وعممتهـــم بخيرك وفضلك فعظم رجاؤهم وانفسحت آمالهم وقد بقيت اشياء لو ذكرتها لــك لم تدع النظر فيها بمثل ما فعلت في غيرها واشياء مع ذلك خلف بابك يعمل بهـــا لا تعلمها فان جعلت لي السبيل الى الدخول عليــك واذنــت لــي في رفعهـا اليك فعلت »(٢٠) • واصبح يعقوب يدخل البلاط اي وقت شاء •

جندّ يعقوب كل ما لديه من حنكة سياسيه وقابلية ادارية وشخصية جذابة في خدمة الخليفة بحيث اصبح الاخير لا يستغني عنه في المشورة وتدبير الامور • فكان يشير « في امر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغزاة وتزويج العزاب وفكـاك الاسرى والمحتبسين والقضاء على الغارمين والصدقة على المتعففين »(٢١) وتؤيد ذلك رواية اخرى حيث تشير بان يعقوب « غلب على امر المهدي كله »(٢٢) •

ولا يخفى على الباحث المتمعن بان هدف الخليفة وراء اصطناع يعقوب كـان اعمق من حاجته الى خبرة يعقوب الادارية والاستشـارية الا وهو تأمـين جانب العلويين وحل النزاع الهاشمي بطريقة سلمية تضمن للخلافة العباسية البقاء ، ومن اجل ذلك ابتدع الخليفة طريقة متبكرة لتوثيق الصلة بيعقوب ومن ورائه العلويين الا وهي اتخاذه « اخاً في الله » ووزيراً واسبغ عليه مبلـغ ١٠٠،٠٠٠ درهم(٢٣) • وربمـا كـان ذلــك على رواية الطبري ســنة ١٥٩ هـ وذلــك لان المهــدي « رجا ان ينال بيعقوب من الظفر بالحسن بن ابراهيم واتخذه اخـاً في الله واخرج بذلك توقيعاً واثبت ذلك في الدواوين »(٢٤) ، وقد حقق يعقوب رجاء الخليفة بعـد سنة واحدة في موسم الحج سنة ١٦٠هـ/سنة ٧٧٧م حيث احضر الحسن بــن ابراهيم واخذ له اماناً واعطاه الخليفة كذلك الكثير من المال والضياع •

---

(٢٠) الطبري ، المصدر السابق ، III ، ص٤٦٣ ــ ٤٦٤ •

(٢١) المصدر السابق ، ص٤٦٤ •

(٢٢) الجهشياري ، ص١٥٦ •

(٢٣) الطبري ، III ، ٤٦٤ ، الجهشياري ، ص١٥٦ • ابن خلكان ، المصدر السابق (الانكليزية) ج٤،ص٣٥٢ • ابن طباطبا ، الفخري،ص١٦٦ فمابعد.
Köcher - **Ya'qúb,** PP. 389ff.
Moscati,Nuovi studi sul califatao dial - Mahdi, **Orientalia,** 15, 1946, PP. 164 - 167 .- Sowdel, **Le Vizirat** ...,PP.108ff.

(٢٤) الطبري ، III ، ص٤٦٤ • ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص١٦٦ فمـا بعــد •

استيزار يعقوب بن داود :

تتباين الروايات التاريخية في تعيين الوقت الذي حصل فيه يعقوب على لقب « الاخ في الله » وعلى لقب « الوزير » • فرواية الطبري ، الانفة الذكر انه حصل على اللقب الاول قبل اللقب الثاني بسنوات وانه كان له مغزاه السياسي•اما الجهشياري فيقول « وتمالأ يعقوب والربيع على ابي عبيدالله فجعلت حال يعقوب تزيد وحال ابي عبيدالله تنقص الى ان سمي المهدي يعقوب اخاً في الله ووزيراً واخرج بذلك توقيعات تثبت ذلك في الدواوين »[٢٥] • اما المسعودي[٢٦] فيكتفي بالقول بان المهدي « اختص يعقوب •• وخرج كتابه الى الدواوين ان أمير المؤمنين قد أخاه »••ولعل رواية الطبري هي الاصح والاكثر قبولاً • اما المؤرخون المتأخرون[٢٧] فلا يحددون تاريخاً في اغلب الاحيان وربما اختصر الرواية وحذفوا منها الشيء الكثير •

وقد ناقش المؤرخون المحدثون لقب « الاخاء في الله » فلاحظ الدوري[٢٨] بانه « تشير الى ثقة بعيدة واعتماد كلي » واهمل الدكتور حسن ابراهيم حسن هذا اللقب لم يشرْ اليه في كلامه عن يعقوب[٢٩] • والغريب ان شخصية يعقوب بن داود لم تحضَ باهتمام الاستاذ شبلي في كلامه عن الوزراء العباسيين[٣٠] •

اما المستشرق سورديل فيرى انه من الطبيعي ان يسبق تعيين عدو قديم للدولة في منصب رفيع كمنصب الوزارة اصدار عفو كامل عنه ولذلك اعلن الخليفة انه « اخاً في الله » مشيراً الى قلب صفحة جديدة بازالة كل آثار العداوة السابقة • اي ان الاخاء خطوة ضرورية تسبق منحه لقب الوزير وتزيل ترسبات العداء الماضي •

ويبدي كوشير دهشته من تصرف الخليفة هذا تجاه شخصية من الشخصيات السياسة ويقارنها بتصرف هارون الرشيد تجاه البرامكة الا انه يعترف بأن علاقة المهدي كانت اوثق وانها اعطت يعقوب مكانه اقوى • اما كويتين فيقرنها بالآية

(٢٥) الجهشياري ، ص١٥٥ .
(٢٦) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٦ ، ص٢٣٢ .
(٢٧) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ١٤ ، ص٢٦٢ — ٢٦٥ . — ابن الاثير ، الكامل ، جـ٦ . ص٢٤ فما بعد . — ابن خلكان . وفيات الاعيان جـ٤ ، ص١٩ — ٢٥ . ابن طباطبا . الفخري ، ص١٦٧ — ١٦٩ .
(٢٨) الدكتور عبدالعزيز الدوري . النظم الاسلامية ، ص٢٢٠ .

القرآنية « واجعل لي وزيراً من اهلي هارون أخي اشـــدد به ازري واشركـه في امري »[٣١] • اما حسن الباشا فيقول عن هذا اللقب « بانه نعت خاص لقب بهالمهدي وزيره يعقوب وذلك جرياً على عادة تلقيب الوزراء بنعـــوت شخصيته في العصر العباسي وهو مقتبس من الاية القرآنية [انما المؤمنون أخوة] »[٣٢] •

ولعلنا ندرك اهمية اللقب اذا استعنا بالوقائع التاريخية ورجعنـــا الى الوراء قليلا لنبحث في تاريخ صدر الاسلام • فلقد آخى الرسول(ص)بينه وبين علي بن ابي طالب قبل الهجرة وكذلك في المدينة • كما آخى الرسول (ص) بين المهاجرين والانصار في المدينة المنورة[٣٣] • ولقد كان تلقيب الخليفة يعقوب بهـــذا اللقب اشــــارة ودية ذات مفهوم سياسي موجه نحو العلويين بل ان هذا الاجراء كان من اكثر الاجراءات السياسية التي اتخذها المهدي في مجال التقارب العلـوي ـ العباسي • وبمعنى آخر فان الخليفة لمــح للعلويين واتباعهم بصورة غــير مباشرة الى استعداده للذهاب الى أبعد الحدود في التسامح معهم وانه يتودد الى أولئــــك الذين يودون نسيان الماضي واظهار الولاء للدولة العباسية •

وفي الوقت الذي كانت هذه الاجراءات تتفق مع سياسة المهدي في الفتـــرة الاولى من حكمه فانها في نفس الوقت عبدت الطريق امام يعقوب بن داود لكـــي يتقلد منصب الوزارة •

اما ما يتعلق باستيزار يعقوب فتتفق الروايات التاريخيـــة عـلى انـــه اول شخصية سياسية عباسية اتخذت رسميا لقب « وزير » • يقـول الجهشياري[٣٤] « سميّ المهدي يعقوباً اخاً في الله ووزيـراً » • ويبين الطبري « ولـم يزل امـــر يعقوب يرتفع عند المهدي ويعلو حتى استوزره وفوض اليه أمر الخلافة » • ويشير

---

(٢٩) الدكتور حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياســـي ، جـ٢ ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ •

(٣٠) احمد شبلي ، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، جـ٣ ، ص٢٤٧ فما بعــد . ص٦٣ـ فما بعــد .

(٣١) Sowdel, Le Vizirat.., p. 108; Köcher, **Op.cit,** p.382; Goiten, **Op.cit,** p.382.

(٣٢) حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية ، ص١٣٥ .

(٣٣) ابن هشام ، السيرة ، جـ١ ، ص٣٠٤ ، البلاذري ، انساب الاشراف ، جـ١ ، ص ٢٧٠ .

(٣٤) الجهشياري ، ص ١٥٥ .

ابن طباطبا « استحضر المهدي يعقوب وخاطبه فرأى انــه اكمل الناس عقــلاً فشغف به واستخلصه لنفسه ثم استوزره وفاض الامور اليه » • ثم يستمر فيقول « قرب المهدي يعقوب وادناه فصار يعرض عليه من المصالح والنصائح ما لم يكن يعرض عليه من قبل فاستخلصه وكتب كتابـاً بانه اخـوه في الله تعالى واستـوزره وفوض اليه الامور كلها وسلم اليه الدواوين وقدمه على جميع الناس[٣٥] »•ويلاحظ ابن الاثير وابن خلكـان والخطيب البغـدادي والمقريـ•ي نفس الملاحظـة في ان استيزار يعقوب كان استيزار تفويض وانه صدر فيه مرسوماً رسمياً[٣٦] •

وبالنسبة للمؤرخين المحدثين فقد لاحظ كوتين اتفاق المصادر التاريخيـة والادبية بصورة لا تقبل الشك على اتخاذ يعقوب لقب الوزارة رسميا ، ويرجـع كوتين اهمال بعض الروايات لذكر كلمة وزير مع اسم يعقوب الى تأثـير بعض المفاهيم المتأخرة التي اكدت على ذكـر « الاخ في الله » دون « الوزير »[٣٧] • ولكن سورديل لا يقتنع كلياً بتفسير كوتين ولذلك فهو لا يعلق كبير اهمية على لقب « الوزير » ويقول بان يعقوب حصل على هذا اللقب كما حصل عليه من سبقه ولكن شخصيـة يعقوب الجذابة ومنحـه لقب « الاخ في الله » هي التي اضفت ضوءاً خاصاً على وزارة يعقوب بن داود هذه[٣٨] • اما كوشير[٣٩] فيلاحظ بان نفوذ يعقوب بن داود بدأ بالنحو منذ سنة ١٦١ هـ/سنة ٧٧٨م حيث استطاع ان يحل محل ابي عبيد الله معاوية ويصبح الرجل بعد الخليفة • ولم يكن منح المهدي لقب وزير الا تأكيداً رسمياً لما كان قد وقع فعلا منذ فترة ليست بالقصيرة • ويتفق موسكتي[٤٠] وسورديل في الرأي مع كوشير في هذا الشأن • ويؤيـد الدكتـور الدوري والدكتور حسن ابراهيم حسن والمدور ومحمد برانق وأحمد أمين ان

---

(٣٥) الطبري ، III ، ص٥٠٨ ، الفخري ، ص١٦٦ .

(٣٦) الكامل ، جـ٦ ، ص٢٦ ، وفيات الاعيان (الانكليزية) جـ٤ ، ص٣٥٢ ، الطبعة العربية جـ٦ ، ص٢١ . تاريخ بغداد جـ١٤ ، ص٢٦٢ . ــ مخطوطه منتخب التذكرة ، ص ١٢٨ ب .

(٣٧) Goiten, **op.cit**, p.382

(٣٨) Sourdel, **op. cit**, p. 106

(٣٩) Köcher, **op. cit**, p.388

(٤٠) Moscati, **op. cit**, p.165

الخليفة استوزر يعقوب واعلن ذلك رسميا على اقاليم الدولة وانه فوض اليه امور الدولة[٤١] .

اما الاساليب التي دعت المهدي الى استيزار يعقوب فترد فيها روايات عديدة:

(١) « زعم الناس ان [يعقوب بن داود] وعد [المهدي] الدخول بينه وبين [عيسى بن زيد] وكان يعقوب ينتفي من ذلك الا ان الناس قد رموه بان منزلته عند المهدي انما كانت للعباسية بآل علي ولم يزل امره يرتفع عند المهدي ويعلو حتى استوزره وفوض اليه أمر الخلافة »[٤٢] . ولكن الظاهر ان الطبري صاحب الرواية غير متأكد من روايته هذه على ان الاصفهاني[٤٣] يشير الى اتصال المهدي بعيسى بن زيد الحسيني - ربما عن طريق يعقوب - وأمنه ولكن عيسى لم يثق بوعود الخليفة وبقي متوارياً عن الانظار .

(٢) ان هرب الحسن بن ابراهيم الحسني من السجن كان البداية لتوثيق العلاقة بين الخليفة ويعقوب . « فتقدم المهدي الى يعقوب بطلبه [الحسن] فضمن له ذلك واستأذنه في رفع النصائح اليه فأذن له .. »[٤٤] وفي رواية ثانية « فحظي [يعقوب] بذلك عند [المهدي] ومما رجا ان ينال به من الظفر بالحسن ... فلم تزل منزلته تنمو وتعلو صعداً الى ان صير الحسن في يد المهدي بعد ذلك » وفي رواية ثالثة « ومما حظي به يعقوب

---

(٤١) الدوري ، النظم الاسلامية ، ص٢٢٠ . حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، جـ٢ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ . المدور ، حضارة الاسلام في دار السلام ، ص ٨٨ - ٨٩ . محمد برانق . الوزراء العباسيون جـ١ ، ص٤ فما بعد . انظر كذلك احمد امين ، ضحى الاسلام ، جـ٢ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤٢) الطبري ، III ، ص ٥٠٨ . ابن الاثير ، المصدر السابق جـ٦ ، ص٢٤ فما بعد . الفخري ، ص١٦٦ .

(٤٣) الاصفهاني ، مقاتل الطالبين (عيسى بن زيد) .
كان عيسى بن زيد قد (اشترك مع الزيدية في ثورة ابراهيم الحسني في البصرة . فلما قتل ابراهيم توارى عيسى وقيل انه خلف ابراهيم في زعامة حركة المعارضة المسلحة ضد العباسيين فطلبه المنصور دون جدوى واوصى ابنه المهدي باستنفاذ كل الوسائل في سبيل القبض عليه .

عند المهدي انه استأمنه للحسن بن ابراهيم ودخل بينه وبينه حتى جمع بينهما بمكة »[٤٥] .

(٣) تتفق روايات[٤٦] الجهشياري والطبري وابن طباطبا على ان استيزار يعقوب تم بمؤامرة دبرها الربيع بن يونس بالاتفاق مع يعقوب على اقصاء ابي عبيد الله معاوية بن يسار وزير المهدي . فلقد وثق يعقوب صلته بابن علاثه ثم دخل البلاط بمساعدة ابي عبيد الله نفسه الا ان ازدياد نفوذه ازعج ابا عبيد الله . وكان بين الربيع وابي عبيد الله حسد وكراهية فاتفق الربيع ويعقوب على ازالة سلطان الوزير . تقول الرواية « فتثاقل ابو عبيد الله وادلّ وتمالأ يعقوب والربيع على ابي عبيد الله فجعلت حال يعقوب تزيد وحال ابي عبيد الله تنقص » . وفي ذلك يقول الشاعر علي بن الخليل[٤٧]:

عجباً لتصريف الامو ... ر مرّة وكراهيه
والدهر يلعب بالرجا ... ل له دوائر جاريه
رثت بيعقوب بن دا ... ودحبال معاويه
وعدت على ابن علاثه ... القاضي بوائق عافيه
قل للوزير ابي عبيد ... الله هل لك باقيه
يعقوب ينظر في الامو ... ر وانت تنظر ناصيه
ادخلته فعلاً عليك ... كذاك شؤم الناصية

وفي هذا ينطبق قول ابن طباطبا في وصفه الدولة العباسية حيث يقول انها كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر .

(٤) كان لموالي الخليفة تأثير كبير على المهدي وقد حسدوا ابا عبيد الله لسلطته ونفوذه فأخذوا « يشنعون عليه عند المهدي ويسعون عليه عنده » فأزالوا سلطته واستطاع يعقوب ان يحل محله بمساعدة الربيع مولى الخليفة .

وتضيف بعض الروايات ان يعقوب بن داود وعد الربيع بمبلغ كبير جائزة له ان هو استطاع ان يقنع الخليفة باستيزاره « فاتنى عليه الربيع

---

(٤٤) الجهشياري ، ص ١٥٥ . ابن خلكان ، وفيات (الانكليزية) جـ٤ ، ص٣٥٢.
(٤٥) الطبري ، III ، ص٤٦٤ ، ص٥٠٨ .
(٤٦) المصدر السابق ، ص ٤٦٣ ، ٤٨٨ — ٤٩٠ ، الجهشياري ص١٥١ — ١٥٢ ، ص١٥٥ ، الفخري ص ١٦٦ — ١٦٧ .
(٤٧) الطبري ، III ، ص ٤٦٤ — ٤٦٥ .

لدى المهدي فاستحضره •• فقربه وادناه ••• واستخصه واستوزره وفوض اليه الامور كلها وسلم اليه الدواوين وقدمه على جميع الناس»[٤٨].

(٥) وقد خبر يعقوب طبع الخليفة وخاصة اسرافه وميله للتبذير والترف تلك الصفات التي كانت سبباً الى سوء علاقته بأبي عبيد الله « فزين [للمهدي] هواه فانفق المال واكبّ على اللذات والشرب وسماع الغناء» وبهذا استطاع ان يجذب المهدي نحوه ويكسب مودته له فعينه وزيراً[٤٩] .

من هذا نلاحظ بان الروايات التي تتعلق باستيزار يعقوب متداخلة الا انها ربما كانت متكاملة[٥٠] اي ان الخليفة اختار يعقوب لاسباب عديدة . فالمعروف ان عصر المهدي كان فترة هدوء سياسي واستقرار بعد الثورات العنيفة التي كادت ان تعصف بكيان العباسيين في عهد الخليفة المؤسس المنصور . وقد حاول الخليفة الجديد ان يبرهن بأنه « المهديُ »[٥١] حقاً فأتخذ اجراءات من شأنها أن تخفف العبأ عن الرعية وتزيل الشدة التي لحقت بهم ايام المنصور . فاطلق السجناء واعاد الاموال والضياع المصادرة وعمّر الحرمين ومنح بسخاء لأهل الحجاز واصطنعهم وطارد اهل الكفر والزندقة ، واظهر انه مستعد للتسامح والتراضي مع العلويين وكان تودده الى يعقوب بن داود خطوة ايجابية في هذا المجال .

هذا من جهة ومن جهة اخرى لم تكن شخصية المهدي في قوتها كشخصية ابيه المنصور ، فقد كان المهدي سريع التأثر باقوال مواليه وصحابته ، يفتقر الى القابلية الادارية ، يميل الى البذخ والاسراف وحياة اللهو بسبب البيئة المترفة التي عاش فيها . وكان ابوه المنصور يدرك ذلك فحذره من الاسراف والاهمال

---

(٤٨) المصدر السابق ص ٤٨٧ . الفخري ، ص ١٦٦ .

(٤٩) الجهشياري ، ص١٥٩ . ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٣٥٣ .

(٥٠) هذا مع وجوب الحذر من عنصر المبالغه أو الوضع في اجزاء من هذه الروايات كالرواية التي تظهر يعقوب والربيع كالراشي والمرتشي ، أو الرواية التي تصور استيزار يعقوب بسبب تشجيعه الخليفة على الاسراف واللهو .

(٥١) تقول ارجوزة في تاريخ العباسيين وضعها شمس الدين محمد الباعوني الشافعي (مخطوطة رقم ١٦١٥ في المكتبة الوطنية في باريس) :

أباد كل طافر زنديق ... والده وكان سيفاً منتضى
وانتصب المهدي لما ان مضى ... وكان مهدياً على التحقيق

(ص ٧ أ)

وترك الامور بيد الكتاب ، وأمر يحيى بن خالد البرمكي وابا عبيد الله معاوية ان يصاحبا المهدي ويساعداه بالعمل والمشورة • ولكن المهدي وقع خلال مدة حكمه (١٥٨/٧٧٥ ـ ١٦٩/٧٨٥) تحت تأثير الربيع بن يونس كما وانه اسرف في البذخ حتى انفق كل ما ادخره له ابوه من مال ويقدره الجهشياري بـ٩٦٠ مليون درهم(٥٢) •

من هذا المنطلق ـ وبعد هذا العرض السريع لصفات المهدي كخليفة ـ نستطيع ان نستنتج بان اختياره ليعقوب كان لاسباب منها شخصية ومنها سياسية • فالمهدي كان بحاجة الى وزير له صفات يعقوب بن داود وخصائصه الشخصية بحيث يستطيع ان يخلصه من اعباء السياسة والادارة ويأخذها على عاتقه حتى يتاح له المجال ليعيش حياةً بعيدة عن محن السياسة وتكاليف الادارة • كما وان سياسة الترضية والتوفيق تجاه العلويين لم تكن لتجد منفذاً لها احسن من يعقوب• وبعبارة اخرى فان المهدي وجد في شخصية يعقوب الجذابة اللبقة الكثيرة التجارب والكفوءة ، اضافة الى ماضيه كنصير للعلويين خير معين له على تحقيق اهدافه •

ويظهر ذكاء يعقوب بن داود وحذقه السياسي في حشده كافة قابلياته الشخصية واستغلاله ماضيه في سبيل الوصول الى الخليفة • وحين خطا يعقوب الخطوة الاولى بمساعدة ابن علاثه القاضي وابي عبيد الله معاوية أحسن التصرف في حضرة المهدي فأثر فيه بحيث اقتنع الاخير بانه الشخص الذي كان يبحث عنه •

ولا ينكر ان كسب يعقوب للربيع ومن ورائه كتلة الموالي كان خطوة كبيرة في سبيل الوصول الى الوزارة وازاحة ابي عبيد الله لما كان من التنافس والحسد بين هذه الكتل في البلاط العباسي •

وقد خلد الشاعر سلم الخاسر تنصيب يعقوب وزيراً بقوله(٥٣) :

قل للأمام الذي جاءت خلافته ... تهدي اليه بحق غير مردود
نعم المعين على التقوى أعنت به ... اخوك في الله يعقوب بن داود

(٥٢) الجهشياري ، ص ١٥٩ .
(٥٣) الاصفهاني ، الاغاني ، جـ٢١ ، ص١١٠ فما بعد . الجهشياري ، ص١٥٥ . ابن خلكان ، المصدر السابق . جـ٤ ، ص٣٥٢ . الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ١٤ ، ص٢٦٣ .

سلطة يعقوب بن داود :

لقد بدأ نفوذ يعقوب في البلاط منذ سنة ١٦١ هـ/سنة ٧٧٧م الا انه حل محل ابي عبيد الله معاوية سنة ١٦٣هـ/سنة ٧٧٩م وتقلد سلطات واسعة في الدولة لعدة سنوات اي حتى سنة ١٦٦هـ/سنة ٧٨٢م . وقد كان تأثيره كبيراً مما دعا الشاعر بشار بن برد الى القول :

بني امية هبوا طال نومكم　　ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فاطلبوا　　خليفة الله بين الزّق والعود(٥٤)

وتختلف المصادر في توضيحها صلاحيات يعقوب فيقول الجهشياري(٥٥) « غلب يعقوب على أمر [المهدي] كله ووزارته » ويؤكد « وتفرد يعقوب بتدبير الامور كلها » . ويذكر علي بن محمد النوفلي ان الخليفة فوّض الى يعقوب امر الخلافة(٥٦) .

وقد عين يعقوب اقرباءه وانصاره من الزيدية في مناصب الدولة المهمة . يقول الجهشياري « ولما استقام أمر يعقوب ارسل الى الزيدية جميعاً فاتى بهم من كل ناحية فولاهم امور الخلافة في الشرق والغرب وكان هذا مما عتب به عليه » . ويذكر الطبري « انه ولى الزيدية من امور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها في يديه »(٥٧) . كما وانه كان يشير على الخليفة بتعيين الولاة . وارسل بأمر من المهدي (الامناء) الى اقليم الدولة وامصارها المختلفة فكان لا ينفذ أمراً دون استشارة الأمير او الوالي لهم . وكان هؤلاء الامناء على صلة بيعقوب في بغداد(٥٨) . ويظهر كذلك من الرواية ان يعقوب كان يتولى ادارة امور

---

(٥٤) الاصفهاني ، الاغاني جـ٣ ، ص٧١ . ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص٤٠ فما بعد . الجهشياري ، ص١٥٩ . الطبري ، III ، ص٥٠٨ . ابن خلكان ، المصدر السابق جـ٦ ، ص٢١ . الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد جـ١٤ ص٢٦٣ .
(٥٥) الجهشياري ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .
(٥٦) الطبري ، III ، ٥٠٨ عن علي بن محمد النوفلي .
(٥٧) المصدر السابق Ibid . انظر كذلك الجاحظ ، الحيوان ، جـ٣ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .
(٥٨) الطبري ، III ، ٤٨٦ ، ٥٠٩ ، الجهشياري ص ١٥٦ .

الجيش والادارة المالية ، يقول يعقوب للمهدي « والله اني لا تفزع – في النوم منذ وليتني امور المسلمين واعطاء الجند »(٥٩) .

على اننا لا نستطيع في حقيقة الامر ان نجد صلاحيات يعقوب بن داود على وجه الدقة ، ولكن الذي يزيد من اهمية سلطة يعقوب هو اصدار الخليفة توقيعاً رسمياً بذلك وتعميمه على كافة الاقاليم(٦٠) . ويبالغ المستشرق ويل(٦٢) حين يقول بان يعقوب كان يدير الشؤون الحربية وشؤون القضاء والادارة العامة . ولعلنا نكون اقرب الى الصواب اذا قلنا بأن شخصية الوزير وعلاقته بالخليفة هي التي تحدد صلاحياته ونطاق مسؤولياته .

وقد استغل بعض اقرباء يعقوب مركزه فاصبح اخوه صالح والياً على البصرة وهو الذي هجاه بشار بن برد(٦٢) قائلاً :

همُ حملوا فوق المنابر صالحاً اخاك فضجّت من اخيك المنابر(٦٣)

أسباب نكبته :

لم تدم وزارة يعقوب بن داود طويلاً فقد كانت كسابقتها ذات اجل قصير حيث حضي بالوزارة مدة اربع سنوات فقط من ١٦٣ هـ – ١٦٦ هـ فقد تغير

---

(٥٩) الطبري ، III ، ص٥١٤ عن محمد بن عبدالله .

(٦٠) المصدر السابق ص ٤٦٤ ، الجهشياري ص١٥٥ . الفخري ص ١٦٦ . وفيات الاعيان جـ٤ . ص ٣٥٢ المسعودي . مروج الذهب جـ٦ ، ص٢٣٢ .

(٦١) G. Weil, **Geschichte der chalifen,** stuttgart, 1866, vol. 2, p. 109.

(٦٢) ان علاقة يعقوب بن داود ببشار بن برد طويله ينتابها التعقيد والغموض لكثرة الروايات وتناقضها . وليس هنا مجال البحث في طبيعة تلك العلاقة التي انتهت بقتل بشار بن برد بتحريض من يعقوب بن داود . وفى الواقع هناك روايتين رئيسيتين في مقتل بشار . الاولى تؤكد بان العداوة القديمة بين يعقوب وبشار هي التي اودت بحياة الاخير . والثانية تقول بان سبب قتله هو اتهامه بالزندقة . (انظر الطبري ، III ٥٣٨ . الجهشياري ص١٨٤ . أبن الاثير جـ٦ ، ص٥٨٠ . الاصفهاني ، الاغاني ، جـ III ، ص٧٠) . على اننا نعتقد بان مقتل بشار سواء كان بتهمة الزندقة أو بتهمة هجائه للخليفة المهدي كان من تدبير الوزير يعقوب . اما بالنسبة لاتهامه بالزندقة فالروايات المتيسرة لدينا لاتساعدنا على اثبات هذه التهمة عليه . وكل ما نستطيع ان نستنتجه من شعره وسلوكه انه كان شاكاً في بعض المعتقدات الدينية . (انظر كذلك الجاحظ ، البيان والتبين ، جـ١ ، ص١٦ فما بعد . زيدان ، تاريخ اداب اللغة العربية ، جـ٢ ، ص٦٤ فما بعد .) ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص٣٠ .

الخليفة عليه فجأة وكان هذا التغير بمثابة نقطة تحول في سياسة التوفيق والترضية وخاصة تجاه العلويين •

تذكر كتب التاريخ والتراجم روايات تاريخية عديدة عن اسباب نكبة يعقوب ابن داود ولعل الملاحظ الدقيق يدرك بأن بعض هذه الاسباب التي ادت الى نكبته هي نفسها ساعدت في حينه على ارتفاع مكانته وعلو شأنه •

(أ) فشل يعقوب في تحقيق الوعد الذي قطعه على نفسه وذلك بتجميد حركة المعارضة العلوية عن طريق اقناع الحسن بن ابراهيم وعيسى بن زيد بالاعتراف بالسلطة العباسية • يقول الطبري « ولما علم آل الحسن بن علي بصنعه [يعقوب] استوحشوا منه وعلم يعقوب انه ان كانت لهم دولة لم يعش فيها ••• »(٦٤) • والظاهر ان يعقوب فشل فشلاً فيما يخص عيسى ابن زيد على الرغم من الحاح المهدي حيث اهمل يعقوب أمر عيسى وتغافل عن التحري عنه• يروي الاصفهاني(٦٥) ان المهدي قرأ شعراً لعيسى بن زيد يشكو فيه القلق وعدم الاستقرار فاعطاه الأمان ان خرج ولكن يعقوب الذي شهد الحادثة تغافل عن الامر واظهر انه لا يعرف قائل الابيات •

(ب) لقد حسد « الموالي » نفوذ يعقوب ومنزلته لدى الخليفة فاستطاعوا ان يغيروا وجهة نظر الخليفة عليه • يقول الطبري « فحسده موالي المهدي فسعوا عليه »(٦٦) وتذكر رواية ثانية « وكثرت الاقوال في يعقوب ووجد اعداؤه مقالاً فيه ••• وذكروا للمهدي خروجه على المنصور »(٦٧) • والمعروف ان للموالي تأثيراً على الخليفة لدرجة ان عمه عبدالصمد بن علي حذره من ذلك قائلاً « يا أمير المؤمنين انا اهل بيت قد اشرب قلوبنا حب موالينا وتفويقهم وانك قد صنعت من ذلك ما افرطت فيه قد وليتهم امورك كلها وخصصتهم في ليلك ونهارك ولا أمن تغير قلوب جندك وقوادك من أهل خراسان »(٦٨) • وكان اعداء يعقوب يقصدون عمداً اظهار عيوبه • فان

---

(٦٣) الجهشياري ، ص١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٣ •
(٦٤) الطبري ، III ، ص٥٠٨ — ٥٠٩ •
(٦٥) الاصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ٤١١ — ٤١٢ •
(٦٦) الطبري ، III ، ص ٥٠٨ عن علي بن محمد النوفلي •
(٦٧) الجهشياري ، ص ١٥٩ •
(٦٨) الطبري ، III ، ص٥٣١ عن الموصلي •

مرض يعقوب هيأ الفرصة لاعدائه بتأليب قلب المهدي عليه « فلما فقد وجهه تمكن السعادة من المهدي فلم تأت عليه عاشرة حتى اظهر السخط عليه»[٦٩]
وقد استعمل الشعراء في ذلك ايضاً :

لله درك يا مهدي من رجل لو لا اتخاذك يعقوب بن داود[٧٠]

(ج) وصل يعقوب الى السلطة بأن زين للخليفة الاسراف والبذخ الا انه كما يظهر اضطر الى انتقاد بعض تصرفات المهدي علانية مثل الاسراف وحضور بعض مجالس الشراب وانفاق ٥٠ مليون درهم من بيت مال المسلمين على بناء متنزه وما انفقه على مدينة عيساباذ[٧١] • فيذكر ابن خلكان أن ابراهيم الموصلي المغني « ان المهدي كان اول خليفة سمعه ولم يكن في زمانه مثله في الغناء واقتراع الالحان »[٧٢] • وحرضه بعضهم على نبذ يعقوب قائلاً :

فدع عنك بن داود جانباً واقبل على صهباء طيبة النشر[٧٣]

وتروي بعض الروايات ان يعقوب طلب من الخليفة اعفاءه من منصبه قائلاً « ليس على هذا استوزرتني ولا على هذا صحبتك أبعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ وتسمع السماع»[٧٤] •

(د) وتعزو رواية اخرى متواترة[٧٥] ان سبب نكبة يعقوب تعود الى اطلاقه سراح احد العلويين الذين أمره الخليفة بقتلهم • وقد استطاع الخليفة القبض على العلوي الهارب واحضره امام يعقوب الذي لم يستطيع الكلام اطلاقا ولا بنت شفة •

يقول المسعودي[٧٦] « فاتهم المهدي [يعقوب] بشيء من امور الطالبيين

---

(٦٩) المصدر السابق ، ص ٥١٥ .
(٧٠) الجهشياري ، ص١٥٩ .
(٧١) المصدر السابق ص١٥٩ — ١٦٠ ، الطبري ، III ، ص٥٠٩ ، ٥١٤ .
(٧٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ١ ، ص١٦ .
(٧٣) الطبري ، ص ٥١٤ . الفخري ، ص١٦٧ .
(٧٤) الطبري ، III ، ص٥١٤ .
(٧٥) الجهشياري ، ص١٦٠ — ١٦١ ، الطبري III ص٥١١ ، ابن خلكان ، وفيات (الانكليزية) جـ٤ ، ص٣٥٣ فما بعد . الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد جـ١٤ ، ص٢٦٤ — ٢٦٥ . المقريزي ، مخطوطة منتخب التذكرة ص ١٢٨ — ١٢٩ أ ، ١٣٠ ب . — اتهم الشاعر مروان بن ابي حفصه يعقوب بعد ان سخط عليه المهدي بأنه رافضي .
(٧٦) المسعودي — مروج ، جـ٦ ، ص٢٣٢ .

فهم بقتله ثم حبسه» ويذكر ابن طباطبا «حدّث يعقوب بن داود ان سبب نكبته ان المهدي أمره ان يكفيه رجلاً علوياً لانه خائف ان يخرج عليه فأخذته واطلقته وأعطيته مالاً واخبرت احدى الجواري المهدي بذلك »[٧٧] .

(هـ) وهناك رواية[٧٨] ينفرد بها الطبري عن علي بن محمد النوفلي وفحواها ان سبب نكبة يعقوب هو اتصاله باسحق بن الفضل بن عبدالرحمن بن العباس بن الربيع بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم . وكان اسحق الهاشمي صديقاً ليعقوب منذ كانا في السجن سوية ايام المنصور وكان اسحق يعتقد « بان الخلافة قد تجوز في صالحي بني هاشم جميعاً فكان يقول كانت الامامة بعد رسول الله (صلعم) لا تصلح الا في بني هاشم وهي في هذا الدهر لا تصلح الا فيهم وكان يكثر في قوله للأكبر من بني عبدالمطلب وكان هو ويعقوب يتجاريان ذلك » .

وقد اقترح يعقوب على المهدي تعيين اسحق على ولاية مصر لأضطراب الامور فيها ولكن المهدي تغافل عن ذلك كما وصل الي سمع الخليفة ان يعقوب يمهد الامور للقيام بثورة باسم اسحق الهاشمي . « واقبلت السعايات ترد على المهدي حتى قيل ان المشرق والمغرب في يد يعقوب واصحابه وقد كاتبهم وانما يكفيه ان يكتب اليهم فيثوروا في يوم واحد على ميعاد فيأخذوا الدنيا لاسحق بن الفضل فكان ذلك قد ملأ قلب المهدي عليه » . وقد استجوب الخليفة يعقوب قائلاً « ألم تخبرني بان هذا [اسحق] واهل بيته يزعمون انهم احق بالخلافة منا اهل البيت وان لهم الكبر علينا » فانكر يعقوب ذلك ، كما انكر اسحق ذلك ايضاً وا كد بان ليس هذا من شأنه « وكيف اقول هذا يا أمير المؤمنين وقد مات جدي في الجاهلية وابوك الباقي بعد رسول الله (صلعم) ووراثه » .

وفي رأينا فان الروايات التي ترجع اسباب نكبة يعقوب لعوامل سياسية هي الراجحة ويجدر اخذها بنظر الاعتبار والتمعن فيها . فالخليفة صمم على التخلص من يعقوب بعد ان اقتنع بأن الاخير يشكل خطراً على أمن الدولة وسلامتها بسبب فعاليته السياسية المريبة . فلقد فشل يعقوب في الوصول بسياسة الترضية مع العلويين الى نتيجة ناجحة ذلك لأن العلويين شكوا في نواياه واستهجنوا

---

(٧٧) ابن طباطبا ــ الفخري ، ص١٦٧ .
(٧٨) الطبري ، III ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٦ .

تقلب ميوله السياسية وظل عيسى بن زيد مستتراً عند علي بن صالح بن يحيى حتى وفاته • كما وان هذا الفشل أقنع المهدي بعدم جدوى امكانية التوفيق وبعقم سياسة اللين والمهادنة وجدد شكوكه القديمة في ميول يعقوب العلوية •

وحين اصبح يعقوب بن داود بين المطرقة والسندان اي بعد ان فقد ثقة العلويين وخيب آمال المهدي اندفع ليجد له طريقاً آخر فتقرب الى اسحق بن الفضل الهاشمي الذي كان يمني نفسه بالخلافة فشعر الخليفة بالخطر ، ولعب اعداء يعقوب دوراً في تهويل هذا الخطر لدى الخليفة • وربما حاول يعقوب ، في محاولة أخيرة منه لابعاد بعض الموالي عن البلاط وتخليص الخليفة من تأثيرهم ومؤامراتهم ، ان يحذر المهدي من الاسراف والبذخ في مجالس الغناء والشراب ولكن ذلك زاد من توسيع الخلاف بينه وبين الخليفة •

على ان الرواية في الفقرة (هـ) الانفة الذكر تسند الى علي بن محمد النوفلي وهو ثقة عند الطبري كما وان نص الرواية متكامل ويشرح العلاقة بين يعقوب واسحق الهاشمي بصورة مقنعة وانهما بحثا ـ على اقل تقدير ـ في احقية الاخير للخلافة • ويؤكد المسعودي(٨٠) ذلك فيقول بأن وجهة نظر يعقوب في الامامة انها يجب ان تكون في الفرع الاكبر من نسل العباس وان عدداً من اعمام المهدي كانوا احق بالخلافة من المهدي نفسه • ان قلة المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا لا تساعدنا على معرفة المدى الذي عمل فيه الطرفان على تحقيق فكرة نقل الخلافة الى اسحق وهل وضعت الخطط العملية لتنفيذها ، أم أن ما تذكره الروايات عن اعداد ثورة باسم اسحق كانت مجرد اشاعات بثها حساد يعقوب وتناقلها الناس •

اما الرواية في الفقرة (د) فمصدرها علي بن يعقوب بن داود نفسه وهي تدعو الى الحذر من حيث الاسناد كما وان النقد الباطني (الداخلي) لنص الرواية يظهر بان فيها الكثير من الحشو والخيال والتزويق اللفظي في وصف مجلس الخليفة والظروف التي احيط به الحديث بين الخليفة والوزير • على ان الجهشياري(٨١) يؤيد هذه الرواية كما يؤكدها الخطيب البغدادي وابن الاثير وابن

---

(٧٩) الاصفهاني ، مقاتل الطالبيين (عيسى بن زيد) . العاملي ، اعيان الشيعة ، جـ١٠ ، ص٥٧ .

(٨٠) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٦ ، ص٢٣٢ .

(٨١) الجهشياري ، ص١٦٠ ـ ١٦٢ . تاريخ بغداد جـ١٦ ، ص٢٦٥ . وفيات الاعيان جـ٤ ، ص٣٥٢ فما بعد . (الانكليزية) . الكامل جـ٦ ص٤٧ ـ ٤٨ .

خلكان • ولذلك فاغلب الظن انها صحيحة في مفهومها العام ولكن الرواة او علي ابن يعقوب نفسه اضاف اليها كثيراً من الرتوش اللفظية لتؤثر في نفسية القارىء وتستجلب عطفه على يعقوب • والواضح من هذه الرواية ان الازمة بين الخليفة والوزير كانت « ازمة ثقة » ليس الا • ولم يكن هناك اقوى من تهمة الولاء للعلويين او محاولة نقل السلطة لأحد الهاشميين • وبعد أفليس من حق الخليفة ان يشك في يعقوب حين يساعد هذا الاخير احد العلويين ـ بغض النظر عن الدوافع التي دعته الى ذلك ـ على الفرار والاختفاء (٨٢) •

على ان الباحث يحار في تفسير التصرف الذي سلكه يعقوب تجاه العلوي وعصيانه اوامر الخليفة ولعل تصرفه هذا يوضح سلوكه في الفترة الاخيرة من وزارته حين توسعت الهوة وازداد الجفاء بينه وبين الخليفة • وقد يرجع هذا التصرف ـ كما يقول كوشر (٨٣) ـ لاسباب دينية بحتة فان يعقوب الذي عرف بتدينه الشديد خاف من عاقبة قتل او اضطهاد شخص علوي من بيت الرسول (صلعم) •

اما ما ذكر في الفقرة (ح) من روايات فلعل في بعضها وصفاً قريباً من الصحة لما كان يحدث في البلاط العباسي الا اننا يجب ان نحذر من الروايات التي تبالغ في استهتار المهدي في مجالسه وتشيد بموقف يعقوب الصلب وبتقواه وتدينه ، او بمحاولته اكثر من مرة التخلص من مسؤولية الوزارة • واغلب الظن ان هذه الروايات او جزء منها موضوع من قبل انصار يعقوب او من قبل العلويين وخاصة بعد نكبة يعقوب (٨٤) •

ولعلنا نستطيع ان نستنتج بان سقوط وزارة يعقوب بن داود ترجع الى

---

(٨٢) ولعه من المفيد ان نذكر بان الرواية ( ) في نكبة يعقوب تتفق مع رواية تذكرها مصادر تاريخية عديدة في سبب نكبة البرامكه في عهد هارون الرشيد . وفحواها ان الرشيد امر جعفر البرمكي بقتل يحيى بن عبدالله العلوي الحسني الا ان جعفر اطلق سراحه بدلا من تنفيذ اوامر الخليفة . ولنا أن نتساءل هل ان هاتين الحادثتين مجرد توافق عن طريق الصدفة ام ارتباط يصنعه بعض الرواة عن قصد حين يحارون فى تفسير امثال هذه الحوادث التاريخية الغامضة .

(٨٣) Köcher, **op. cit,** p. 392

(٨٤) انظر مثلا طبري ، III ، ص.٥١٠ ، ٥١٤ . اليعقوبي . التاريخ ، (انظر الفهرست) . العاملي ، اعيان الشيعه ، (فهرست) .

عوامل متداخلة هي في مجموعها ذات طابع سياسي حيث فشل في سياسة الترضية العلوية واهملها بعد تسلمه الوزارة وتقرب الى اسحق بن الفضل الهاشمي واطلق سراح العلوي السجين • الا ان أهمهـا اثراً هي السلطة الاستثنائية الواسعة التي تمتع بها يعقوب حتى ان الخليفة احس بتأثيرها فتحرك ليحرر نفسه من هذا النفوذ الذي بدأيهدده بالذات • وهكذا فقد ادرك الخليفة بان وزيره قد اصبح ذا نفوذ خطر يهدد كيان الخلافة العباسية فعمل في الحال على اقصائه •

نهـاية الوزير :

لقد أمر الخليفة بسجن يعقوب في سجن (المطبق) • وطرد كافـة العمال والولاة الذين عينهم فاختفوا وتشردوا • كما وسجن الكثير من **اقربائـــه واهــل بيتـــه**[٨٥] •

وبالرغم من ان التهمة التي اتهم بهـا يعقـــوب كانت تمس أمن الدولـــة وسلامتها الا ان الخليفة لم يأمر بقتله ولعل ذلك يعـــود الى حصوله على لقـب « الاخ في الله »ذلك اللقب الذي صانه من عقوبـــة الموت • يقـــول التنوخي ان يعقوب بن داود لما حضر عند المهدي ذكر بما كان قد منحه من عهد الله وميثاقـه وذمة رسوله وما كان قد تعهد له بعدم سجنه او ضربه او قتله[٨٦] • ولقد ظـل هذا الامان يشفع ليعقوب ، امر الخليفة الهادي (١٦٩/٧٨٥-١٧٠/٧٨٦) بضربه ١٠٠ ســوط ولما علم بنبأ احتمال موته بعد الضرب فزع اشد الفزع خوفـــاً مما يقوله الناس بعد الامان الذي كان قد اعطاه اياه المهدي[٨٧] •

على ان هذه الحادثة الاخيرة قد تظهر مدى تعلق بعض الناس به ، وفي الواقع رثاه بعض الشعراء واظهروا فضائله الحميدة وتشير بعض الروايات التاريخية الى ان يعقوب لم يكن مجرد شخص سياسي طموح متعطش للسلطة لا يدخر سبيلاً من اجل الوصول الى الحكم بل كان لشخصيته الجذابة التي سحرت الخليفة مدة

(٨٥) الطبري ، III ، ص٥١٦ ، الجهشياري ص١٦٣ •

(٨٦) التنوخي ، الفرج بعد الشدة (مخطوطه ، المكتبة الوطنية في باريس ص١٨٢ رقـم
Sourdel, **Le Vizirat**, p. 11.
(arabe 3483

(٨٧) الطبري ؛ III ، ص ٥٨٥ عن محمد بن عبدالله بن يعقوب بن داود •

من الزمن جوانب اخرى منها قابليته الفذة وذكاؤه وثقافته الواسعة وشاعريته • وقد قال عنه ابو الشيص الخزاعي الشاعر :

ابلغ امام الهدى ان لست مصطنعاً ... للنائبات كيعقوب بن داود
لو تبتغي مثله في الناس كلهم ... طلبت ما ليس في الدنيا بموجود

ورثاه الشاعر ابو حنش :

يعقوب لا تبعد وجنبت الردى ... فلأ بكين زمانك الرطب الثرى
واری رجالاً ينهشونك بعدما ... اغنيتهم من فاقة كل الغنى
لو ان خيرك كان شراً كله ... عند الذين عدوا عليك لما عدا[٨٨]

وقد سجن يعقوب سنة ١٦٦هـ في عهد المهدي ولم يقدّر له ان يخرج من السجن الا في عهد الرشيد[٨٩] • ولكن الروايات تختلف في السنة التي اطلق فيها سراحه فبالنسبة للجهشياري سنة ١٧٥هـ / سنة ٧٩١م وبالنسبة للخطيب البغدادي سنة ١٨١هـ[٩٠] / سنة ٧٩٧م • وقد اختار المقام في مكة حيث بقي فيها حتى توفي سنة ١٨٧هـ / سنة ٨٠٣م[٩١] •

وبهذا انهت حياة رجل سياسي من الطراز الاول يعتبر سلوكه بمثابة مرآة تعكس بصدق تقلبات السياسة ومتطلباتها في العصر العباسي الاول •

---

(٨٨) الجهشياري ، ص١٦٣ .

(٨٩) قيل ان يحيى بن خالد البرمكي توسط لدى الرشيد لاطلاق سراح يعقوب (جهشياري ١٦١ . — قارن التنوخي الفرج بعد الشدة ص١٤١ — ١٤٢ .
(Sourdel. **Le Vizirat,** p. 111.

(٩٠) يذكر الخطيب البغدادي رواية فحواها ان المهدي اطلق سراح يعقوب وهي رواية غير صحيحة كما يعترف الخطيب نفسه (تاريخ بغداد جـ١٤ ، ص ٢٦٤) .

(٩١) الجهشياري ، ص١٦١ . الطبري ، III ، ص٥١٦ . ابن خلكان وفيات الاعيان ، جـ٤ ، ص٣٥٣ . الخطيب البغدادي تاريخ بغداد جـ١٤ ، ص٢٦٤ . ابن طباطبا ، الفخري ، ص١٦٩ .. وفي رواية اخرى للطبري ان يعقوب توفي في الرقة سنة ١٨٧ هـ ، III ، ص٦٨٨ .